الْأدِلّةُ الْعَقْلِيَّةُ عَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم

"وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ الَّذِي تَشْهَدُ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ بِصِدْقِهِ.

مِنْهَا، أَنْ يُقَالَ: لَا رَيْبَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَكُونُ حَقًّا، وَتَارَةً مَا يَكُونُ بَاطِلًا، وَهُوَ حَسَّاسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَةِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَجِّحٍ لِأَحَدِهِمَا.

وَنَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا عُرِضَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ وَأَنْ يُكَذِّبَ وَيَتَضَرَّرَ، مَالَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ[١]، وَحِينَئِذٍ فَالِاعْتِرَافُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ وَالْإِيمَانُ بِهِ هُوَ الْحَقُّ أَوْ نَقِيضُهُ، وَالثَّانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ.

ولا يخالف الشخص هذا إلا عندما تنطمس فطرته، وتغرها الحياة الدنيا وزينتها، فإذا حصل ذلك فقد يكذب بالشيء الظاهر البين؛ بسبب ميله إلى ما توهمه مصلحة له.

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦١).

فلو عرض عليك ما تقول في هذا العالم؟ أله خالق موجد أم لا خالق له؟ إما أن تقول أنه وجد على هذا النظام والإحكام والتقدير من غير موجد، وهذا القول لا تقبله الفطر السليمة، وإما أن تقول إن لهذا العالم موجد وخالق.

ولا يمكن في العقل والفطرة ألا يكون لهذا العالم موجد مدبر عالم حكيم قدير. أما عند فساد الفطر والعقول فقد يصل الحال إلى إنكار أن يكون للعالم خالق، كما قال بعضهم إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤](٢).

---

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٢٦٩).

فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الْفِطْرَةِ مَا يَقْتَضِي مَعْرِفَةَ الصَّانِعِ وَالْإِيمَانَ بِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ: إِمَّا أَنْ (تَكُونَ فِي فِطْرَتِهِ مَحَبَّتُهُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ أَوْ لَا، وَالثَّانِي فَاسِدٌ قَطْعَاً)(٣)، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي فِطْرَتِهِ مَحَبَّةُ مَا يَنْفَعُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ بِحَسَبِهِ(٤).

وَحِينَئِذٍ (وَإِنْ)(٥) لَمْ تَكُنْ فِطْرَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مُسْتَقِلَّةً بِتَحْصِيلِ ذَلِكَ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ مُعِينٍ لِلْفِطْرَةِ، كَالتَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، فَإِذَا وُجِدَ

(٣) في النسخة التي شرحها الحوالي والعقل "إما أن تكون محبته أنفع للعبد أو لا. والثاني فاسد قطعاً" شرح الطحاوية لسفر الحوالي (ص: ١٠٥١، بترقيم الشاملة آليا)، شرح الطحاوية لناصر العقل (٨/ ٣، بترقيم الشاملة آليا). وهي أوضح

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٥٨)، وفي ط دار السلام (ص: ٨٤)، وط الأوقاف السعودية (ص: ٣٤) (بحسه) وكذلك قرأت على الشيخ.

(٥) في ط دار السلام (ص: ٨٤)، وط الأوقاف السعودية (ص: ٣٤)، بدون (وَإِنْ).

**الشَّرْطُ، وَانْتَفَى الْمَانِعُ، اسْتَجَابَتْ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ**(٦).

أي لو جئت من بيئة سليمة أو بادية لم تُلوث بشيء من الشبهات، ووفقت للتعلم على يد عالم سنة، فسمعت منه العلوم النافعة، والعقيدة الصحيحة المأخوذة من الكتاب والسنة، فإنك لا تجد في نفسك شيئا من المعارضة، بل تجد فطرتك قابلة لذلك.

وأما إذا كان ذهنك قد حشي بشيء من الشبهات، فحينها تظهر المعارضات. ومن هنا يتبين أن ما جاء به الكتاب والسنة هو الحق وهو موافق للفطرة.

فالعقيدة الصحيحة تؤخذ من الكتاب والسنة، ويشهد لها العقل السليم والفطرة. أما الخرافات كاعتقاد عصمة الأئمة، أو أن لهذا الكون أكثر من مدبر، أو أن الأولياء يتصرفون في العالم، فهذا كله لا يدل عليه شيء من الأدلة الشرعية أو العقلية، ولا تكاد تجد فطرة سليمة تقبله.

---

(٦) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦٠).

**وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ قَابِلَةٍ لِلْعِلْمِ وَإِرَادَةِ الْحَقِّ، وَمُجَرَّدُ التَّعْلِيمِ وَالتَّحْضِيضِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ، لَوْلَا أَنَّ فِي النَّفْسِ قُوَّةً تَقْبَلُ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلَوْ عُلِّمَ الْجَمَادُ وَالْبَهَائِمُ وَحُضِّضَا لَمْ يَقْبَلَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ حُصُولَ إِقْرَارِهَا بِالصَّانِعِ مُمْكِنٌ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مُنْفَصِلٍ مِنْ خَارِجٍ.**

فالذي يجعلك تحفظ المعلومات يدل على أنك تملك قابلية شبهها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالأرض الطيبة كما في حديث أبي موسى، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم

وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(٧).

فعندما تسمع العلم تتقبله وتحفظه، وتضم إلى معلوماتك معلومات جديدة، وفي هذا دليل على القابلية التي فطر عليها هذا الإنسان، من قبول الحق والعمل بموجبه، وإلا فلو جلس الإنسان يعلم الحجر أو الشجر، لما قبلت شيئا من ذلك، لأنها لا تملك أدوات التلقي التي وهبها الله للإنسان. فأنت عندك العقل والفهم والذاكرة والحافظة.

**وَتَكُونُ الذَّاتُ كَافِيَةً فِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ الْمُقْتَضِي قَائِمًا فِي النَّفْسِ وَقُدِّرَ عَدَمُ الْمَعَارِضِ، فَالْمُقْتَضِي السَّالِمُ عَنِ الْمَعَارِضِ يُوجِبُ مُقْتَضَاهُ، فَعُلِمَ أَنَّ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهَا مَنْ يُفْسِدُهَا، كَانَتْ مُقِرَّةً بِالصَّانِعِ عَابِدَةً لَهُ.**

---

(٧) صحيح البخاري (١/ ٢٧) ح(٧٩)، صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٧) ح(١٥ - (٢٢٨٢)).

**وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ، أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُفْسِدُ الْخَارِجُ، وَلَا الْمُصْلِحُ الْخَارِجُ، كَانَتِ الْفِطْرَةُ مُقْتَضِيَةً لِلصَّلَاحِ، لِأَنَّ الْمُقْتَضِي فِيهَا لِلْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ قَائِمٌ، وَالْمَانِعَ مُنْتَفٍ"**(٨).

فلو قدر أنه لم يعلمك أحد الحق، ولم يعلمك أحد الباطل، وبقيت على فطرتك لوجدت في فطرتك أشياء تتناسب مع الحق، تميل إلى تعظيم الله وعبادته، تعتقد أن لهذا العالم خالق، تفكر في نفسك أنك ما خلقت عبثا، وأنك إنما خلقت لأمر عظيم.

ولهذا وجد في زمن الجاهلية أناس بحثوا عن الحق والتوحيد مثل:

**زيد بن عمرو بن نفيل** كما جاء عن ابن عمر: " أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا،

(٨) ما بين علامتي التنصيص مأخوذ من درء تعارض العقل والنقل ط- دار الكتب العلمية - بيروت (٨/٤٥٦- ٤٦٣).

وأنى أستطيعه فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا، ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئا أبدا، وأنى أستطيع فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم - عليه السلام - خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم "[٩].

وكذلك **أمية بن أبي الصلت** إلا أنه قد قيل أنه أدرك النبي - صلى الله عليه وسلم - ورفض الإسلام وقد كان يرجو أن يكون هو النبي العربي[١٠].

---

(٩) صحيح البخاري (٥/ ٤٠) ح(٣٨٢٧).

(١٠) انظر: البداية والنهاية ط إحياء التراث (٢/ ٢٨٠).

وكذلك **أبو ذر الغفاري** كما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما بلغ أبا ذر مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني.

فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت.

فتزود وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع فرآه علي فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه.

فمر به علي فقال: أما نال[11] للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث، فعاد علي على مثل ذلك، فأقام معه ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني فعلت، ففعل فأخبره.

قال: فإنه حق، وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي - صلى الله عليه وسلم - ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه.

فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم -: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» قال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن

---

(١١) " أي: أما حان، يقال: نال له، بمعنى: آن له، ويروى: أما آن، بمد الهمزة، وأنى بفتح الهمزة والقصر وفتح النون وكلها بمعنى" عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٧/ ٣).

لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشأم[١٢]، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه)[١٣].

وغير هؤلاء أيضا مجموعة كانوا في الجاهلية قبل أن يسمعوا بالإسلام، وجدوا في أنفسهم ميلا إلى الإسلام، ومنهم من أسلم، مع أنهم كانوا يعيشون في مجتمع جاهلي، إلا أنهم كانوا معرضين عن الأشياء الجاهلية.

كما يقول **عمرو بن عبسة السلمي**: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي، فقدمت

(١٢) في صحيح مسلم (٤/ ١٩٢٤) ح(١٣٣ - (٢٤٧٤)) (وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم).

(١٣) صحيح البخاري (٥/ ٤٧) ح(٣٨٦١)، صحيح مسلم (٤/ ١٩٢٤) ح(١٣٣ - (٢٤٧٤)).

عليه، فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مستخفيا جُرءاء[١٤] عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» ، فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله» ، فقلت: وبأي شيء أرسلك، قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء» ، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر، وعبد»[١٥]، فلم يكن عنده إقبال على تلك الجاهلية.

وهذا **قُس بن ساعدة** الإيادي كما جاء في خبر طويل عنه أنه يقول مخاطبا المشركين: (يقسم قس قسما بالله لا إثم فيه: إن لله تعالى دينا هو أرضى مما أنتم عليه)[١٦].

---

(١٤) " جرءاء عليه قومه كذا في جميع الأصول بجيم مضمومة جمع جريء بالهمز من الجراءة وهي الإقدام والتسلط وذكر الحميدي في الجمع بين الصحيحين بالحاء المهملة المكسورة ومعناه غضاب ذوو غم قد عيل صبرهم به حتى أثر في أجسامهم من قولهم حري جسمه يحري ك ضرب يضرب إذا نقص من ألم وغيره قال النووي والصحيح أنه بالجيم " شرح السيوطي على مسلم (٢/ ٤٢٣).

(١٥) صحيح مسلم (١/ ٥٦٩) ح(٢٩٤ – (٨٣٢)).

(١٦) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٠١). والعبارة معناها صحيح وإن كانت القصة لا تثبت بتفاصيلها ولكن كما قال البيهقي (٢/ ١١٣): "وإذا

وكذلك **سلمان الفارسي** فقد جاء عنه «أنه تداوله بضعة عشر، من رب إلى رب»(١٧) وقصته كما جاء عن عبد الله بن عباس، قال: حدثني سلمان الفارسي حديثه من فيه، قال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية.

واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوما، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد.

فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس

---

روي حديث من أوجه وإن كان بعضها ضعيفا دل على أن للحديث أصلا والله أعلم"، وقال ابن كثير: "وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة" البداية والنهاية ط إحياء التراث (٢/ ٢٩٥).

(١٧) صحيح البخاري (٥/ ٧١) ح(٣٩٤٦).

لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟

قالوا: بالشام، قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، قال: فلما جئته، قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدا، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا

حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات.

فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟، قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال:

فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟، قال: أي بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا

فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله – عز وجل – ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله،

فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجارا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي.

فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث الله رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء، حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا أقبل على عملك، قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو بقباء، فدخلت عليه،

فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم قال: فقربته إليه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: " كلوا " وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا، وتحول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

قال: ثم جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استدبرته، عرف أني أستثبت في شيء وصف لي،

قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي.

فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " تحول " فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدر، وأحد.

قال: ثم قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "كاتب يا سلمان " فكاتبت صاحبي على ثلاث مائة نخلة أحييها له بالفقير، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه: " أعينوا أخاكم " فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، يعني: الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاث مائة ودية.

فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي " قال: ففقرت

لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده، فو الذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها ودية واحدة.

فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: " ما فعل الفارسي المكاتب؟ " قال: فدعيت له، فقال: " خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان " فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: " خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك " قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعتقت، فشهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد[١٨].

---

(١٨) مسند أحمد ط الرسالة (٣٩/ ١٤٠) ح(٢٣٧٣٧) حسنه شعيب الأرنؤوط ومساعدوه، وحسن إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٦٠).

وهكذا، فهناك أناس لا يزالون على الفطرة؛ فتدفعهم فطرتهم للبحث عن الحق، الآن في أوربا – بلاد الكفر والعلمنة والإلحاد – تجد أناسا ليسوا مستجيبين للكنيسة، وتقودهم فطرهم وعقولهم للبحث عن الحق، فبعضهم يذهب إلى الهند؛ لأن فيها أديان كثيرة، وبعضهم يأتي إلى العالم الإسلامي، وذلك لأنه لم يطمئن إلى الخرافات التي بنيت عليها أديانهم، فهو يبحث عن الدين الحق، هذه هي الفطرة التي في القلوب.

الْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّةُ عَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم

وَيُحْكَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَرَادُوا الْبَحْثَ مَعَهُ فِي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ(١). فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي قَبْلَ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ سَفِينَةٍ فِي دِجْلَةَ، تَذْهَبُ، فَتَمْتَلِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِهِ بِنَفْسِهَا، وَتَعُودُ بِنَفْسِهَا، فَتُرْسِي بِنَفْسِهَا، وَتَتَفَرَّغُ(٢) وَتَرْجِعُ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدَبِّرَهَا أَحَدٌ؟ !! فَقَالُوا: هَذَا مُحَالٌ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ هَذَا مُحَالًا فِي سَفِينَةٍ، فَكَيْفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ عُلْوِهِ وَسُفْلِهِ!!

(١) وقال ابن كثير " وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى" ثم ذكر معنى الكلام هنا، تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ١٩٧). ونسبها الرازي في تفسيره = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢/ ٣٣٣) إلى الدهرية مع أبي حنيفة. وهو أبعد عن الإشكال، والمقصود أن نسبة الحكاية إلى بعض المتكلمين أو أهل الكلام فيه نظر ولكن قد يكون هؤلاء من الفلاسفة السمنية أو الدهرية الملاحدة الزنادقة، أما أهل الكلام فهم لا ينكرون وجود الله صراحة؛ وإن كانت بعض أقوالهم في التعطيل تستلزم ذلك.

(٢) في ط دار السلام (ص: ٨٥) (وتفرغ) وكذلك قرئت على الشيخ.

**وَتُحْكَى هَذِهِ الْحِكَايَةُ أَيْضًا عَنْ غَيْرِ أَبِي حَنِيفَةَ أَيْضًا[٣].**

فهؤلاء المجموعة الذين ناقشهم أبو حنيفة هم مجموعة من المتفلسفة، لا يؤمنون إلا بما يرونه[٤]، فناقشوا أبا حنيفة في ذلك، فأجاب عليهم

(٣) في ط دار السلام (ص: ٨٥)، ط الأوقاف السعودية (ص: ٣٥) بدون (أيضا) وكذلك قرئت على الشيخ.

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وما يذكر من الأمثال المضروبة والشواهد المبينة لكون الصنعة تفتقر إلى الصانع في حدوثها وبقائها، إنما هو للتنبيه على ما في الفطرة كما يمثل بالسفينة في الحكاية المشهورة عن بعض أهل العلم، أنه قال له طائفة من الملاحدة: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال لهم: دعوني فخاطري مشغول بأمر غريب.

قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها.

فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال: وما ذاك قالوا أهذا يصدقه عاقل؟ فقال: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة وهذا الفلك الدوار السيار يجري وتحدث هذه الحوادث بغير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام وهكذا إذ قيل: فهذه السفينة أثبتت نفسها في الساحل بغير موثق أوثقها ولا رابط ربطها، كذبت العقول بذلك. درء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٢٦).

بهذا المثال الذي ذكره، ومن هذا الباب النمرود(٥) الذي جادله إبراهيم الخليل – عليه السلام – ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهكذا أحيانا يغشى القلب شيء من ران الذنوب فيغطيه، فيبدأ يتبجح فإذا جاءت الحجة أو جاءت مناسبة معينة أزالت الغشاوة ومثله قوله تعالى في المشركين ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] فهم في البر يدعون غير الله ويشركون بالله في القرى والمدن، فإذا ركبوا في الفلك وهبت عليهم الرياح، وأحسوا بالخطر والهلاك، نسوا آلهتهم والتجؤا إلى الله، ما الذي

---

(٥) هو " النمرود بن كنهان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. "انظر: قصص الأنبياء (١/ ١٨٧).

جعلهم يلتجؤن إلى الله في ذلك الموقف وينسون غيره؟ هذا يبين أن الإله الحق إنما هو الإله الذي استقر الاعتراف به في القلب.

في أيام الزعيم الشيوعي بريجنيف كان في حوار مع الرئيس الأمريكي نيكسون، فكان يقول الزعيم الشيوعي إذا لم نوقف الأسلحة النووية فسوف يعاقبنا الله.

فتعجب الصحفيون كيف خرجت هذه الكلمات من زعيم الحزب الشيوعي الذي ينكر وجود الله عز وجل!، وما هو إلا ما في النفوس من الفطرة التي يغطي عليها أحيانا العادات والتقاليد والمفاهيم المغلوطة.

**فَلَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، الَّذِي يُقِرُّ بِهِ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَيَفْنَى فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، وَيَجْعَلُونَهُ غَايَةَ السَّالِكِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ مُنَازِلِ السَّائِرِينَ(٦) وَغَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ**

---

(٦) هو: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ) انظر: سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٨/ ٥٠٣) قال الذهبي في ترجمته " قلت: قد انتفع به خلق، وجهل آخرون، فإن طائفة من صوفة الفلسفة والاتحاد يخضعون لكلامه في (منازل السائرين) ، وينتحلونه، ويزعمون أنه موافقهم. كلا،

وَحْدَهُ وَيَتَبَرَّأْ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ كَانَ مُشْرِكًا مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِالْآيَاتِ الَّتِي تُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دَلِيلًا عَلَى الثَّانِي، إِذْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ الْأَوَّلَ(٧)، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي، فَيُبَيِّنُ

---

بل هو رجل أثري، لهج بإثبات نصوص الصفات، منافر للكلام وأهله جدا، وفي (منازله) إشارات إلى المحو والفناء، وإنما مراده بذلك الفناء هو الغيبة عن شهود السوى، ولم يرد محو السوى في الخارج، ويا ليته لا صنف ذلك، فما أحلى تصوف الصحابة والتابعين! ما خاضوا في هذه الخطرات والوساوس، بل عبدوا الله، وذلوا له وتوكلوا عليه، وهم من خشيته مشفقون، ولأعدائه مجاهدون، وفي الطاعة مسارعون، وعن اللغو معرضون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٨/ ٥١٠).

(٧) في ط دار السلام (ص: ٨٥)، ط الأوقاف السعودية (ص: ٣٦) (في الأول) وكذلك قرئت على الشيخ.

لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ[٨]، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠] الْآيَاتِ

قوله تعالى ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] قالوا هذا من استعمال أفعل التفضيل في غير مقابل، لأن أفعل التفضيل في اللغة العربية يستعمل في شيئين متقاربين، فتقول هذا أفضل من هذا كقولك زيد أعلم من عمرو، أو أفضل من عمرو، فكل واحد منهما فيه فضيلة أو علم ولكن زيد زادت فضيلته أو علمه على عمرو.

---

(٨) في ط دار السلام (ص: ٨٥)، ط الأوقاف السعودية (ص: ٣٦) (لَا خَالِقَ إلا الله وحده) وكذلك قرئت على الشيخ.

فهنا يقول تعالى ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذه المعبودات التي أشركوها مع الله إنما هي أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وإن كانت رموزا لشخصيات من الأولياء أو الأنبياء أو الملائكة، لكن هي في نفس الوقت لا يصح قياسها مع الله، لكن هذا لما كان الهدف منه الدعوة إلى التوحيد ولفت الانتباه استعمل هذا الأسلوب،﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي أيهما خير أن تعبد الله أم تعبد هذه الأصنام، مع أنه لا مقارنة بين المعبودين، ولا بين العبادتين(٩).

**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آخِرِ كُلِّ آيَةٍ: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾** [النمل: ٦٠] **أَيْ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ فَعَلَ هَذَا؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، يَتَضَمَّنُ نَفْيَ ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى اسْتِفْهَامَ: هَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ؟ كَمَا ظَنَّهُ**

(٩) انظر: تفسير السمعاني (٤/ ١٠٧)، البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٢٥٦).

بَعْضُهُمْ(١٠)، لِأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ الْكَلَامِ، وَالْقَوْمُ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى كَمَا قَالَ تَعَالَى. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. لَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ: إَنَّ مَعَهُ إِلَهًا جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرِينِ حَاجِزًا. بَلْ هُمْ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ فَعَلَ هَذَا، وَهَكَذَا سَائِرُ الْآيَاتِ(١١) .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ:﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

---

(١٠) قاله زيد بن أسلم انظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٤/ ٢٢١).

(١١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٦-٧٧).

وَاذَا كَانَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، الَّذِي يَجْعَلُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الصُّوفِيَّةِ هُوَ الْغَايَةَ فِي التَّوْحِيدِ: دَاخِلًا فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، فَلْيُعْلَمْ أَنَّ دَلَائِلَهُ مُتَعَدِّدَةٌ، كَدَلَائِلِ إِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَدَلَائِلِ صِدْقِ الرَّسُولِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ كُلَّمَا كَانَ النَّاسُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ كَانَتْ أَدِلَّتُهُ أَظْهَرُ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِخَلْقِهِ.

الْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُفِيدَةُ لِلْمَطَالِبِ الدِّينِيَّةِ

وَالْقُرْآنُ قَدْ ضَرَبَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَهِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيَّةُ الْمُفِيدَةُ لِلْمَطَالِبِ الدِّينِيَّةِ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ الْحَقَّ فِي الْحُكْمِ وَالدَّلِيلِ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ مَعْلُومَةً ضَرُورِيَّةً مُتَّفَقًا عَلَيْهَا، اسْتُدِلَّ بِهَا، وَلَمْ يحْتَجْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا. وَالطَّرِيقَةُ الصَّحِيحَةُ فِي الْبَيَانِ أَنْ تُحْذَفَ - وَهِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ بِخِلَافِ مَا يَدَّعِيهِ الْجُهَّالُ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ فِيهِ طَرِيقَةٌ بُرْهَانِيَّةٌ - بِخِلَافِ مَا قَدْ يَشْتَبِهُ وَيَقَعُ فِيهِ نِزَاعٌ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُهُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ.

أي المقدمات المنطقية، فهناك مقدمات منطقية تستعمل مركبة من عبارات وجمل لا بد من ذكرها[١٢]، لكن القرآن لا يلتفت إلى هذا الأسلوب، فربما حذف المقدمة، فهو لا يرتب حججه على الطريقة المنطقية[١٣].

**وَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَعْلُومَ الِامْتِنَاعِ عِنْدَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، بِاعْتِبَارِ إِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَإِنَّمَا ذَهَبَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَنَّ ثَمَّ خَالِقًا خَلَقَ بَعْضَ الْعَالَمِ، كَمَا يَقُولُهُ الثَّنَوِيَّةُ فِي الظُّلْمَةِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ فِي أَفْعَالِ الْحَيَوَانِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَة الدَّهْرِيَّةُ[١٤] فِي حَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ أَوْ حَرَكَاتِ**

---

(١٢) انظر: المستصفى (ص: ٢٤- ٢٥) وانظر نقض ذلك في: الرد على المنطقيين (ص: ١٠٧) وما بعدها.

(١٣) انظر: منهاج السنة النبوية (٣/ ٣١٣)، مجموع الفتاوى (٢/ ٨).

(١٤) " (والدهري) بالفتح (ويضم) : الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة (القائل ببقاء الدهر) . وهو مولد. قال ثعلب: وهما جميعا منسوبان إلى الدهر، وهم ربما غيروا في النسب، كما قالوا سهلي للمنسوب إلى الأرض السهلة، واقتصر الزمخشري على الفتح... (و) قال الزمخشري في الأساس والدهري، بالضم (: الرجل المسن) القديم، لكبره. يقال: رجل دهري، أي قديم مسن نسب إلى الدهر،

النُّفُوسِ، أَوِ الْأَجْسَامِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ أُمُورًا مُحْدَثَةً بِدُونِ إِحْدَاثِ اللَّهِ إِيَّاهَا، فَهُمْ مُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ قَدْ يَظُنُّ فِي آلِهَتِهِ شَيْئًا مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ، بِدُونِ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ.

اسْتِحَالَةُ وُجُودِ شَرِيكٍ لَهُ سُبْحَانَهُ

فَلَمَّا كَانَ هَذَا الشِّرْكُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مَوْجُودًا فِي النَّاسِ، بَيَّنَ الْقُرْآنُ بُطْلَانَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْبُرْهَانَ الْبَاهِرَ، بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ الظَّاهِرِ. فَإِنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فَاعِلًا، يُوصِلُ إِلَى عَابِدِهِ النَّفْعَ وَيَدْفَعُ عَنْهُ الضُّرَّ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ إِلَهٌ آخَرُ يَشْرَكُهُ(١٥) فِي مُلْكِهِ، لَكَانَ لَهُ خَلْقٌ وَفِعْلٌ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَرْضَى

---

وهو نادر، وبالفتح: الملحد. " تاج العروس (١١/ ٣٤٩-٣٥١)، وانظر: المخصص (٢/ ٤٠٠)، تحرير ألفاظ التنبيه (ص: ٢٥٠)، شرح شافية ابن الحاجب - الرضي الأستراباذي (٢/ ٨٢).

(١٥) يَشْرَكُهُ: بفتح الياء وسكون الشين وفتح الراء وضم الكاف. وانظر: درة الغواص في أوهام الخواص (ص: ٢٨٦).

تِلْكَ الشَّرِكَةَ، بَلْ إِنْ قَدَرَ عَلَى قَهْرِ ذَلِكَ الشَّرِيكِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْمُلْكِ وَالْإِلَهِيَّةِ دُونَهُ فَعَلَ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ انْفَرَدَ بِخَلْقِهِ وَذَهَبَ بِذَلِكَ الْخَلْقِ، كَمَا يَنْفَرِدُ مُلُوكُ الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِمَمَالِكِهِ، إِذَا لَمْ يَقْدِرُ الْمُنْفَرِدُ مِنْهُمْ عَلَى قَهْرِ الْآخَرِ وَالْعُلُوِّ عَلَيْهِ. فَلَا بُدَّ مِنْ أَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

١. إِمَّا أَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِخَلْقِهِ وَسُلْطَانِهِ.

٢. وَإِمَّا أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

٣. وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا تَحْتَ قَهْرِ مَلِكٍ وَاحِدٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ، بَلْ يَكُونُ وَحْدَهُ هُوَ الْإِلَهُ، وَهُمُ الْعَبِيدُ الْمَرْبُوبُونَ الْمَقْهُورُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

وَانْتِظَامُ أَمْرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ وَإِحْكَامِ أَمْرِهِ، مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ مُدَبِّرَهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

وهذا يسمى: دليل التمانع، وتقريره: لو قيل كيف نستدل على أنه لا يوجد إلا خالق واحد؟

فيقال: هذا العالم علويه وسفليه نراه منتظما، فلو كان مع الله إله آخر يشرك في الملك، فأين مخلوقاته وأين أفعاله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

[الأحقاف: ٤].

فهو إما أن يكون غير قادر على الخلق ولا يملك شيئا، فهذا ليس إلها، أو يكون عنده قدرة على الخلق فلا بد أن يدخل في صراع مع الآلهة الأخرى - لاختلاف الإرادات — من يحكم العالم ولن يتفقوا، فلو أراد أحدهم أن يأتي بالشمس من المشرق وأراد الآخر أن يأتي بالشمس من المغرب، فلا يمكن أن تطلع الشمس من المشرق والمغرب في وقت واحد.

فإذا عجز كل واحد منهم أن يحقق مراده فلا يستحق أن يكون إلها، فلم يبق إلا أن تنفذ قدرة وإرادة إله واحد.

فالله تعالى يلفت نظرنا إلى أن العالم هذا منتظم، خاضع لإرادة واحدة، كل ما فيه مسخر لعمل معين.

ولهذا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – لما نظر هذه النظرة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ – ٧٩] أي وجه توحيده لخالق هذه الأكوان.

فهذا دليل عقلي على أن العالم خاضع لإرادة واحدة، وإله واحد، ولو كان هناك أكثر من إله لفسدت المخلوقات، وتصادمت الإرادتان، وسعى كل في خراب مملكة الآخر والقضاء عليه، أو ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فيكون هناك عالم معه إله وعالم معه إله، وهذا كله لا وجود له، والموجود هو عالم خاضع لإرادة واحدة هي إرادة الله – سبحانه وتعالى –.

فيكون شرك المشركين ليس من هذه الجهة، ليس أنهم كانوا يثبتون آلهة تخلق وترزق وتحيي وتميت، وكل إله معه سماء وأرض، ومعه بر وبحر، لم يكن شركهم كذلك، بل هم معترفون بأن الله الخالق المدبر الرازق، ولكن زعموا أن من يعبدونهم من الأولياء يشفعون لهم عند الله، وأنهم وسائط بينهم وبين الله، يقربوهم إلى الله[16]، فأنكر الإسلام عليهم هذا، كما قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] عن ابن عباس في قوله: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون تسألهم من خلقهم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره[17].

**وَمَلِكٌ وَاحِدٌ، وَرَبٌّ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ لِلْخَلْقِ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ. كَمَا قَدْ دَلَّ دَلِيلُ التَّمَانُعِ عَلَى أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، فَذَاكَ تَمَانُعٌ فِي الْفِعْلِ وَالْإِيجَادِ، وَهَذَا تَمَانُعٌ**

(١٦) انظر: الرد على المنطقيين (ص: ١٠١)، مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٢٤).
(١٧) تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٧/ ٢٢٠٧).

**فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ. فَكَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَالَمِ رَبَّانِ خَالِقَانِ مُتَكَافِئَانِ، كَذَلِكَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ.**

فيستحيل أن يكون له إلهان معبودان مستحقان للألوهية، أما الآلهة بباطل فموجودة وكثيرة، فمن صرف شيئا من العبادة لغير الله فقد عبده، فلو استغاث به أو دعاه فقد جعله إلها، لكن هذا إله باطل، فكل ما أُلِّه سوى الله فإلهيته باطلة.

**فَالْعِلْمُ بِأَنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ عَنْ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ بُطْلَانُهُ، فَكَذَا تَبْطُلُ إِلَهِيَّةُ اثْنَيْنِ. فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُوَافِقَةٌ لِمَا ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ فِي الْفِطَرِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، دَالَّةٌ مُثْبِتَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ.**

**وَقَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وَقَدْ ظَنَّ طَوَائِفُ أَنَّ هَذَا (دَلِيلُ التَّمَانُعِ)[١٨] الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ**

---

(١٨) قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الظن "وظنهم أن هذه الآية هي دليل التمانع غلط عظيم" جامع المسائل لابن تيمية - عزير شمس (٦/ ٩٧) وله

**... الْخَ، وَغَفَلُوا عَنْ مَضْمُونِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَقُلْ: أَرْبَابٌ.**

أما إذا كان هذا الاعتراض مبنيا على أن (الرب) لا يطلق على (الإله)، وعلى أن الإله لا يطلق على الرب، فهذا قد ينازع فيه الشارح، فهناك آيات تطلق الإله على الرب وآيات تطلق الرب على الإله، فلا مانع أن يكون هنا ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ [الأنبياء: ٢٢] بمعنى أرباب، كما جاء في آيات أخر(١٩).

**وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ وُجُودِهِمَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ آلِهَةٌ سِوَاهُ لَفَسَدَتَا.**

---

- رحمه الله - كلام نافع حول دليل التمانع ونقد كلام المتكلمين في ذلك تجده في منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٠٤- ٣٣٦).

(١٩) كما في قوله تعالى ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: لَفَسَدَتَا، وَهَذَا فَسَادٌ بَعْدَ الْوُجُودِ، وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ يُوجَدَا.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمَا آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، بَلْ لَا يَكُونُ الْإِلَهُ إِلَّا وَاحِدا، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِلَهُ الْوَاحِدُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ فَسَادَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ فِيهِمَا مُتَعَدِّدَةً، وَمِنْ كَوْنِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُمَا إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ فِيهِمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا غَيْرَهُ. فَلَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ كُلُّهُ[٢٠]، فَإِنَّ قِيَامَهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَدْلِ، وَبِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

---

(٢٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في تفسير هذه الآية والرد على من توهم أنها دليل للتمانع في الربوبية انظر: جامع المسائل لابن تيمية - عزير شمس (٦/ ٨٧ - ١٢٩) وقال: "والمتكلمون قصروا في معنى الآية من وجهين:

أحدهما: من جهة ظنهم أنه إنما معناها نفي تعدد الأرباب فقط، كما أقاموا هم الدليل على ذلك.

والثاني: ظنهم أن دليل ذلك هو ما ذكروه من التمانع، وليس كذلك، فإن التمانع يوجب عدم الفعل، والتقدير أن الفعل قد وجد، ثم الاشتراك في الفعل يوجب

وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ الشِّرْكُ، وَأَعْدَلُ الْعَدْلِ التَّوْحِيدُ.

---

العجز فيهما، والقرآن إنما أخبر بفسادهما، لم يخبر بعدمهما". جامع المسائل لابن تيمية - عزير شمس (٦/ ١٧٤).

تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَا الْعَكْسُ

## وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ

هذا لا يسلم، بل توحيد الربوبية بتمامه وكماله مستلزم لتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية بتمامه وكماله مستلزم لتوحيد الربوبية، وكل توحيد من الأسماء والصفات أو الربوبية أو الألوهية مستلزم للآخر، عند اكتمال معناه، وأما إذا اقتصر على بعض معانيه فنعم.

فمثلا لو كان توحيد الربوبية عندنا نفهمه على أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت فقط، لكان حينئذ الاعتراف بذلك ليس فيه توحيد ألوهية، لأن توحيد الألوهية معناه: أن تفرد الله بالعبادة، مع أن كونه خالقك ورازقك يستلزم أن تشكره، والشكر عبادة.

لكن من حيث المفهوم اللغوي فلو كان معنى لا إله إلا الله: لا خالق ولا رازق إلا الله، لما تحقق التوحيد، لأن المشركين كانوا يعترفون بذلك، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، لكن عندما نفهم الربوبية بمعناها التام، وأن من معانيها الملك فالله الملك ونحن مملوكون له، والمملوك لا يتصرف إلا على مقتضى ما يريده مالكه.

ومن معاني الربوبية السيادة، والسيد له حق على العبد وهو أن بتصرف على ضوء ما يريده سيده، ومن معاني الربوبية الحاكمية، فلا يتحاكم إلى غير شرع الله عز وجل، ومن معانيها أنه المربي. فإذا فهمت الربوبية بمعناها العام، دخل فيها كل ما سبق.

فتبين أن الربوبية مستلزمة لتوحيد الألوهية. ومن هنا يتبين السر في سؤال الميت في قبره عن الرب لا عن الإله، وذلك للتلازم الحاصل بين التوحيدين. ومن ذلك قوله تعالى ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] (١).

قد يقول قائل: فإذا كان هؤلاء المؤمنون المخرجون يقولون ربنا الله، والمشركون يقولون ربنا الله ويعترفون أن الله هو خالقهم ورازقهم فما الفرق بين الفريقين؟

---

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ١٠٦-١٠٧). فقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه المسألة في جوابه على محمد بن عباد وعقبها بقوله "فينبغي: التفطن لهذه المسألة" وهي كون اسم الرب والإله يجتمعان في المعنى إذا افترقا في اللفظ، ويفترقان في المعنى إذا اجتمعا في اللفظ، كما هو الحال في لفظ الفقير والمسكين.

والجواب: أن المؤمنين أقروا والتزموا بكل معاني الربوبية، وأما المشركون فإنما أقروا ببعض معاني الربوبية فقط؛ فلم يفدهم ذلك إيمانا يتخلصون به من الكفر، بل حصل لهم إيمان مخلوط بالكفر والشرك، فهو إيمان حابط غير مقبول؛ بسبب وجود النواقض التي تنقضه كما في قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فالمشركون مع اعترافهم بأن الله خلقهم ورزقهم إلا أنهم اتخذوا وسائط بينهم وبين الله، ويتحاكمون إلى أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم، فهم لم يكملوا توحيد الربوبية، كما لم يخلصوا في توحيد الإلهية.

**فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَكُونُ عَاجِزًا، وَالْعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].**

**وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]. وَفِيهَا لِلْمُتَأَخِّرِينَ قَوْلَانِ:**

**أَحَدُهُمَا: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا إِلَى مُغَالَبَتِهِ[٢].**

**وَالثَّانِي، وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَنْقُولُ عَنِ السَّلَفِ، كَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ[٣]: لَاتَّخَذُوا سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]. وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢].**

---

(٢) وقد جعل بعض المفسرين هذا القول أصح القولين انظر: تفسير السمعاني (٣/ ٢٤٣)، تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ١٣٥) وهذا يروى عن سعيد بن جبير وهو قول أبي علي الفارسي والنقاش، وقاله المتكلمون أبو منصور وغيره، انظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٤٥٨) واستظهره الشنقيطي مع قوله "وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير، كلاهما حق ويشهد له قرآن" أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ١٥٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧/ ٤٥٤) وكذلك فعل ابن كثير في تفسيره ت سلامة (٥/ ٧٨)، وصحح هذا المعنى وذكر ما يرجحه من ألفاظ الآية: شيخ الإسلام ابن تيمية انظر: درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٥٠) وجعله أصح القولين انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢٤)، (١٦/ ٥٧٧).

فيكون على المعنى الثاني أنه: يستحيل أن يكون هناك رب أو إله مساو لله تعالى، بل لو وجد إله فسيكون خاضعا لله - عز وجل - وإذا كان كذلك فلا يصح أن يسمى إلها، فالآية الأولى تتفق مع قوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وكذلك مع الآية الأخرى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

**وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا: أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ، بَلْ جَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ، وَقَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، بِخِلَافِ الْآيَةِ الْأُولَى.**

التَّوْحِيدُ فِي الْإِثْبَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدُ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ

**"ثُمَّ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ رُسُلُ اللَّهِ وَنَزَلَتْ بِهِ كُتُبُهُ نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الْإِثْبَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ.**

**فَالْأَوَّلُ: هُوَ إِثْبَاتُ حَقِيقَةِ ذَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَمَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ أَفْصَحَ الْقُرْآنُ**

عَنْ هَذَا النَّوْعِ كُلَّ الْإِفْصَاحِ، كَمَا فِي أَوَّلِ (الْحَدِيدِ) وَ (طه) وَآخِرِ (الْحَشْرِ) وَأَوَّلِ (الم تَنْزِيلُ) السَّجْدَةِ، وَأَوَّلِ (آلِ عِمْرَانَ) وَسُورَةِ (الْإِخْلَاصِ) بِكَمَالِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ، مِثْلَ مَا تَضَمَّنَتْهُ سُورَةُ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وَ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وَأَوَّلُ سُورَةِ (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) وَآخِرُهَا، وَأَوَّلُ سُورَةِ (يُونُسَ) وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا، وَأَوَّلُ سُورَةِ (الْأَعْرَافِ) وَآخِرُهَا، وَجُمْلَةُ سُورَةِ (الْأَنْعَامِ) .

مُعْظَمُ سُوَرِ الْقُرْآنِ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ

وَغَالِبُ سُوَرِ الْقُرْآنِ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَوْعَيِ التَّوْحِيدِ، بَلْ كُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ.

فَإِنَّ الْقُرْآنَ إِمَّا خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْعِلْمِيُّ الْخَبَرِيُّ. وَإِمَّا دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التَّوْحِيدُ الْإِرَادِيُّ الطَّلَبِيُّ. وَإِمَّا أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ، فَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتِهِ. وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا يُكْرِمُهُمْ

بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ. وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّكَالِ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ التَّوْحِيدِ.

فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي التَّوْحِيدِ وَحُقُوقِهِ وَجَزَائِهِ، وَفِي شَأْنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَجَزَائِهِمْ. فَـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] تَوْحِيدٌ، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] تَوْحِيدٌ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] تَوْحِيدٌ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] تَوْحِيدٌ، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] تَوْحِيدٌ مُتَضَمِّنٌ لِسُؤَالِ الْهِدَايَةِ إِلَى طَرِيقِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] الَّذِينَ فَارَقُوا التَّوْحِيدَ"(٤).

---

(٤) ما بين علامتي التنصيص هو من كلام ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١٧-٤١٨) وكذلك ما سيأتي إلى قوله " وَالْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُتَضَمِّنٌ الْإِلْزَامَ".